ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَآ(١) إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : حكمنا حُكْماً لا رجعة فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى.

والقضاء يعنى الفَصْل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُد أن يكون القاضى مُؤهّلاً ، ولو فى عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميِّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل فى حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكِّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعى أن يُقدِّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

---

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبى ٣٩٤٢/٥] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو فى أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضى ، فيحوِّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث فى قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضى هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضى العدل الذى لا يحتاج إلى بيِّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً فى قضاء قضاه النبى ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

ففى الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن[1] بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »[2] .

فردَّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء .

---

(١) ألحن بحجته : أى أفطن له وأجدل . واللحن : الفطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولذلك يقول ﷺ فيمَنْ يستفتي شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ »(١) .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميِّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿فِي الْكِتَابِ.. (٤)﴾ [الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم ـ عليه السلام ـ قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

---

(١) عن وابصة بنْ معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٢٢٨/٤) والدارمى فى سننه (٢٤٦/٢) .

وقوله تعالى :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..(٤)﴾ [الإسراء]

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يستطيع أحد الفكاك منه ، ففى هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ « قضينا » ؛ لأن القسَم يجىء للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا..(٤)﴾ [الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركتَه ليؤدىَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوّمات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا فى كَوْنه ما يُمكّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ فى صلاحها بأنْ تبنىَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه فى مواسير لتسهُل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..(٦١)﴾ [هود]

أى : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثْرى حياتك فأعملْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة فى أجهزتك لتعمل فى المادة المخلوقة لله فى الكون ، فأنت لا تأتى بشىء من عندك ، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِى حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقى .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من مَيْزات وفّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا فى عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد فى الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات ، كذلك يكون فى المعنويات ، فالمنهج الإلهى الذى أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكوْنُك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..④﴾ [الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل فى الأرض مرتين فقط ؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هيِّن ، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين[1] ، وفى أىّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم فى حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل فى حَوْزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما فى

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٢٣٩/٥) آثاراً فى تفسير هذه الآية ، فقال :
- أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والأخرى : قتل يحيى عليه السلام .
- وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حضن الإسلام ؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام فى إفسادهم السابق ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً . أى : قبل أن يأتى الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى ـ عليه السلام :

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ⑬⑧ ﴾ [الأعراف]

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية ، وحرّفوا كتاب الله ؟

والناظر فى تحريف بنى إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. ⑬ ﴾ [المائدة]

والذى لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. ⑬ ﴾ [المائدة]

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا..(٧٩)﴾ [البقرة]

فهل هناك إفساد فى منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث فى قصة طالوت وجالوت فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ[1] لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا..(٢٤٦)﴾ [البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصّلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثانى قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادَيْن سابقان للإسلام ، والأَوْلى أن

---

(١) اختُلف فى تحديد من هو هذا النبى على أقوال منها :
- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .
- إنه شمعون . قاله السدى .
- إنه شمويل ، قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير فى التفسير (١/ ٣٠٠) .
يقول فضيلة الشيخ الشعراوى ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية (٢/ ١٠٥٦) : « لا يعنينا ذلك ، لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد فى هذا رَبْطاً لقصة بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين فى المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم[2] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، لأنه قد يشك فى نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك فى شخصية الرسول ﷺ لِمَا قرأه فى كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف فى كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدّمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

في المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس[1] رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنقاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

---

(١) جاسوا : ذهبوا وجاءوا في الأرض . وفي الصحاح : جاسوا خلال الديار أي : فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه . [لسان العرب ـ مادة : جوس] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثانى جاء فى قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْد ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشىء مضى ، وإنما بشىء مستقبل . و ﴿ أولاَهُمَا ﴾ أى : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا فى حضن الإسلام ؛ لأن كلمة (عِبَاداً) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذى قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء فى قوله تعالى : ﴿ عِبَادًا لَنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التى تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى فى قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن

كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

والشاهد في قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾ [المائدة]

فأطلق كلمة « عبادي » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سُلِّطا على بني إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكي موقفاً من مواقف يوم القيامة ، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

ليس من الضروري أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ، وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم ، ويُسلِّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلَّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً ، وأشدّ منه بطشاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الرأي لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة

عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافرين ، فسوف نأتى بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفات المؤمنين الصادقين ، فأطلق عليهم « عباد الرحمن » .

دليل آخر في قول الحق سبحانه فى نقاشه لإبليس : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر]

والمراد هنا المؤمنون .. وقد قال إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

إذن : هنا إشكال ، حيث أتى كُلٌّ بأدلّته وما يُؤيّد قوله ، وللخروج من هذا الإشكال نقول : كلمة « عباد » و « عبيد » ، كلاهما جمع ومفردهما واحد (عبد) . فما الفرق بينهما ؟

لو نظرتَ إلى الكون كله مؤمنه وكافره لوجدتهم جميعاً لهم اختيارات فى أشياء ، ومقهورين فى أشياء أخرى ، فهم جميعاً عبيد

---

(١) قال الأزهرى : اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك . فقالوا : هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عبيد مماليك . وقال الليث : يقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ، ويقال للمسلمين : عباد الله يعبدون الله . [لسان العرب ـ مادة : عبد]

بهذا المعنى يستوى فى القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسِّمهم إلى قسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تعالى لك فى أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفعْل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاختيار هذه يتمايز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلَّموا جميع أمرهم لله فى منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى فى المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خَيَّرهم : تُؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حَلَّ ما أشكل فى هذه المسألة لابُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُميِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختياريات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محلَّ للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فَهْم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨)﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ .. (١٧)﴾ [الفرقان]

فسمَّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستوَوْا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥)﴾ [الإسراء]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلِّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه ، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه .

وقوله : ﴿ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. (٥) ﴾ [الإسراء]

أى : قوة ومنَعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

وقوله سبحانه :﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ .. (٥) ﴾ [الإسراء]

جاسُوا من جاسَ أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمِّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دِقّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دِقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله : ﴿ بَعَثْنَا ..(٥) ﴾ [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝ ﴾ [الإسراء]

أى : وَعْد صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كأى وَعْد يمكن أنْ يَفِى به صاحبه أو لا يفى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً : سألقاك غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج فى تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مثْل هذه العوارض ، فوعْدُه مُتَحقِّق النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا تُقال إلا فى الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الأحداث :﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ..۝ ﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلَق على الشر ، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً فى ظاهره ، وهو خير فى باطنه ، وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر فى ظاهره ، لكنه فى الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذى يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً علـى مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ ﴾

الخطاب فى هذه الآية مُوجَّه لبنى إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوُّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلَّطهم لتأديب بنى إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذى ارتفعوا به ، وتَنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلَّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون فى المدينة ، فأخذوا ينظرون فى حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدَّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلَّتْ الأمور الإيمانية فى نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلَّتْ عنهم صفة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدِّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ۝٦ ﴾ [الإسراء]

و ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخى ، على خلاف الفاء مثلاً التى تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]

فلم يَقُل الحق سبحانه : فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا ﴾ . ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التى كانت للمسلمين فى عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التى كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذى أعطى لهم الحق فى قيام دولتهم فى فلسطين ، وكانت الكَرَّة لهم علينا فى عام ١٩٦٧ ، فناسب العطف بـ « ثم » التى تفيد التراخى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ .. (٦)﴾ [الإسراء]

أى : جعلنا لبنى إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلَّطناهم عليهم ؛ لأنهم تخلوا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التى جعلتْهم عباداً لله .

و (الكَرَّة) أى : الغلبة من الكَرِّ والفَرِّ الذى يقوم به الجندى فى القتال ، حيث يُقدم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦)﴾ [الإسراء]

وفعلاً أمدَّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال فى العالم كله ، وأمدَّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقِّفونهم على أعلى المستويات ، وفى كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين ، فهم فى ذاتهم ضعفاء رغم ما فى أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكى تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومى المزعوم فى فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التى ساندتْ اليهود وصادمتْ المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعودَ كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا(١) مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

وما زال الخطاب مُوجَّهاً إلى بنى إسرائيل ، هاكم سُنَّة من سنن الله الكونية التى يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهى أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف] متبَّر : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهلك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنّة كونية ، مَن استحق الغلبة فهى له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ .. ۝٧ ﴾ [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم فى شكٍّ أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر : دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم الغلبة ، ولن تدوم لهم الكرّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ۝٧ ﴾ [الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. ۝٤ ﴾ [الإسراء]

وبيّنا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ فى المدينة .

وفى الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغَلَبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة علي اليهود .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ .. ۝٧ ﴾ [الإسراء]

أى : نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم ؛ لأن

الوجه هو السِّمة المعبِّرة عن نوازع النفس الإنسانية ، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما في المرء ، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ..(٧)﴾[الإسراء] أي : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى ، وسينقذونه من أيدي اليهود .

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧)﴾ [الإسراء]

المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود ، بل كان في أيدي الرومان المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود ، وإنما كان إساءة للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو في حوزة اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى ، ونُطهِّره من رِجْسهم .

ونلحظ كذلك في قوله تعالى : ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ..(٧)﴾ [الإسراء] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن ، وكان الحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التى لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) ﴾ [الإسراء]

يتبروا : أى : يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بَنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التى نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ : ما علوتُم ، إنما قال ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة مَنْ وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح فى قَوْل الحق سبحانه عنهم :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ..(١١٢) ﴾ [آل عمران]

فهم أذلاء أينما وُجِدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون فى ظلِّه ، كما كانوا فى عهد رسول الله ﷺ فى المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويَّة لا تذوب فى غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون فى البلاد التى يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم فى كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميلٌ للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

كل جماعة منهم فى أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومى فى فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صفة العباد ، ونكون أهْلاً لِنُصْرة الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فهو وَعْد آتٍ لا شكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصِّها فى آخر السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[1] ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود فى أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبنى إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكُنْ فلابُدَّ أن يُحدد لك

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنىء ، والمطيع والعاصى ، والقوى والضعيف . [لسان العرب ـ مادة : لفف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين فى جميع الأنحاء ، مُفرَّقين فى كل البلاد ، كما قال عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ(١) سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكَد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هى فى نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاج الإسلام ، فساعة أنْ يُهَاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبَّه فى الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهى إثارة الحيوية الإيمانية فى النفوس ، فلو لم تُثَر الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هى رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذى يشقى الناس به يُلفت الناس إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة

---

(١) سامه الأمر : كلَّفه إياه . وقال الزجاج : أوْلاَه إيَّاه ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .
قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هى الجزية ، والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل فى الكون يعض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثرهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحَوْا إليهم بفكرة الوطن القومى ، وزيَّنُوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن فى قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكايةً فى الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿ عِبَاداً لَّنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرّقون مُبعْثرون فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شِرْذمة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمُّع والوطن القومى التى نادى بها بلفور وأيَّدتْها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسهِّل علينا تتبعهم وتُمكِّننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء]